مولد العروبة فى مصر الإسلامية

أ.د/ محمد أحمد محمد أحمد بديوى•

تمهيد

عروبة " حدود المصطلح "

للتعريف بالتسمية " عروبة " يستوجب استدعاؤها حسب المعنى اللغوى عبر أيام الجاهلية قبيل الإسلام ، فقد أفادنا المعجم الوسيط [١] بأن معناها يشير إلى يوم الجمعة فى الجاهلية ؛ للدلالة على اجتماع العرب فى يوم الجمعة قبيل الإسلام وعند ظهوره، وأفادنا " ابن منظور " فى لسان العرب بان كلمة عروبة والعروبة ، كلتاهما الجمعة وأنهما من الأسماء القديمة بناء علي ما ورد فى الصحاح[٢] ، والمتواتر فى حديث " الجمعة " أنها كانت تسمى عروبة كاسم قديم لها ، ويقال يوم عروبة ، ويوم العروبة؛ والأفصح أن لا يدخلها الألف واللام[٣].

وفي اشارات آخرى ؛ لم تظهر هذه التسمية " العروبة " إلا منذ أن ظهر الإسلام، حيث كانت قريش تجتمع فى هذا اليوم ، فيخاطبهم كعب ابن لؤى عم الرسول يذكرهم بمبعثه " صلى الله عليه وسلم " ، ويأمرهم بإتباعه والإيمان به[٤].

ويشير دوزي " رينهارد " في تكملة المعاجم العربية ؛ بأن فعل عرب بالتشديد ؛ والجمع عربان اي جعل منه عربيا صحيحا[٥] .

وأفادنا **صبحى غندر**[٦] بأن العروبة تشير إلى عربى اللسان ، الذي يجمع بين هذا اللسان كصاحب ثقافة عربية وبين المضون الحضاري[٧] لها فى إشارة إلى أن العروبة لا تلغى ولا تتناقض مع الروابط العائلية أو القبلية أو الوطنية بل هى تحدوها فى إطار علاقة الجزء مع الكل ، أي في ضوء

• أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة أسيوط .

١- معجم اللغة العربية ؛ ط الرابعة ، مكتبة الشروق الدولية سنة ٢٠٠٤ م ؛ صفحة ٥٩١ .

٢- إبن منظور (أبي الفضل جمال الدين ت ٧٧١ هـ - ١٣٦١م) لسان العرب ، جزء ٣٢ دار المعارف القاهرة ، صفحة ٢٨٧٨ .

٣- إبن منظور : المصدر السابق ، ج ٣٢ صفحة ٢٨٦٨ .

٤- إبن منظور : المصدر السابق ، ج ٣٢ صفحة ٢٨٦٨ .

٥- دوزي (رينهارد) : تكملة المعاجم العربية ، ترجمة أحمد سليم ؛ بغداد ١٩٩٢ ؛ صفحة ١٦٧ .

٦- كان مديرا لمركز الحوار العربي في واشنطن .

٧- صبحي غندر : وجهة نظر حول معني العروبة ؛ مجلة الشركاء ؛ نوفمبر ٢٠٠٥ م ، وضمن ما ورد في كتابه بعنوان " الفكر والأسلوب في مسألة العروبة ، ط أولى ، منشورات مركز الحوار العربي ؛ واشنطن ، يناير ٢٠١١م ،صفحات ٧٧ – ٨٥ .

المنارة للاستشارات
www.

ارتباط الإنسان بوصفه صاحب لسان عربى وكونه صاحب حضارة تحمل الشخصية العربية الإسلامية مهما تأثرت بمكونات وافدة عليها .
ويسوقنا كلام **صبحى غندر** إلي المعنى الاصطلاحى للفظ " عروبة " ؛حيث ورد فى المعاجم العربية بما يفيد أن هذه اللفظة تشير الى توفر خصائص الجنس العربى ومزاياه فى الإنسان[٨] لتكريس فكرة العروبة الأصيلة التى تنطلق لتستقبل ما يأتى عليها من روافد ومؤثرات خارجية لتصنع حضارة اندماجية لها شخصيتها الجديدة برواسخ ودعائم عربية .

ولا مندوحة من أن نبدى تأكيدنا علي أن العروبة اصطلاحيا تعد إضافة جديدة مميزة أوجدها الإسلام على السمة العربية كلغة نتيجة ارتباط الإسلام بالوعاء الثقافى العربى عبر القرون بكل ما يحمله هذا الوعاء من نتائج أفرزها الاندماج الحضارى في داخل البيئات غير العربية ، وفي هذا الإطار لا نرى أى غضاضة من الأخذ بقول أحد الباحثين الذي ينتهى الي أن العروبة هى التي أخرجت الثقافة العربية من دائرة العنصر القبلي – العرقى ومن حدود الجغرافيا الضيقة إلي دوائر جغرافية آخرى متباينة تتسع في تعريفها للعربى ؛ لتشمل كل من يندمج فى الثقافة العربية بغض النظر عن أصوله العرقية[٩] .

وتتكامل بطبيعة الحال الشخصية العروبية في بناء الحضارة اذا ما توجت ممثليها باللسان العربى في أوطانها أو بيئاتها الجديدة مهما اختلفت أجناسهم ؛ بمعنى أن الإنسان صاحب الأعراق العربية الحقيقية يعد ممثلا للعروبة في الأنحاء التى وفد عليها بدافع إسلامه اذا ما نجح في تعريب لسان الأصليين المقيمين فى البلدان المفتوحة منذ فجر الإسلام وحافظ على أصوله بين ظهرانيهم الى حد جعل هذه الأصول نبتة جديدة لدى هؤلاء الأصليين ؛ ودعامة مؤثرة فى نسيج بنائه بحيث تكون العوامل الوافدة المصاحبة للعنصر العربى مساهمة في تشكيل وتوليد عنصر من المولدين الذين يجمعون فى خصائصهم بين الدماء العربية الوافدة ودماء الأصليين .

وغاية ما نقصده مما أسلفناه ؛ انه ليس كل إنسان عربى يعد عروبيا طالما أنه لا يجمع بين لغة الثقافة العربية وبين المضمون الحضارى[١٠] لها ؛ وفي حدود مصطلح عروبة بكل دلالاته لم تتحقق هذه المعانى في مصر إلا في

٨- المعجم الوسيط ؛ نفسه ، صفحة ٥١٩ ، وانظر معجم اللغة العربية المعاصر ، والمعجم الرائد .
٩- صبحى غندر : نفسه ؛ صفحات ٧٧ – ٨٥ أنظر .
10- صبحى غندر ، راجع المرجع السابق والصفحات .

المنارة للاستشارات
www.

ظل الإسلام وبعد مرور فترة زمنية طويلة الأجل تكون كافية لخلق حالة من الاندماج الحضارى بين العرب والمصريين فى فجر الإسلام ؛ وظهور هذه الحالة الاندماجية تأتى معبرة عن مولد العروبة فى مصر ، الذى سوف نعالجه بالدراسة فى الصفحات التاليات .

العروبة والعربية فى مصر قبل الإسلام

تؤكد الجغرافيا سهولة الاتصال بين العرب والمصريين فى القديم ، فقد ساعد البحر الأحمر على اتصال الشواطئ الأسيوية العربية بالشواطئ الأفريقية ، واتخذ العرب التجارة كوسيلة لهذا الاتصال ؛ وحمل التجار المعينيون والسبئيون لواء التجارة فى البحر الأحمر ١٥٠٠ ق .م – ٣٠٠ق.م في عهد دولتى معين وسبأ ؛ ونشطت حركة التجار العرب زمن البطالمة والرومان مما ساهم فى استقرار بعضهم فى أجزاء مختلفة من حوض النيل، وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون فى النوبة وأرض البجة وشمال افريقية ؛ ومما قبل أن هؤلاء الحميريين إختلطوا بسكان شرق السودان وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم[١١] وفى القرن السادس الميلادى إختلط الحضارمة الذين انتفعوا بهذا النظام الوراثى بالبجة وكونوا طبقة حاكمة خضعت لها سكان البجة وتعلموا لغتهم واعتنقوا المسيحية[١٢].

أما عرب الشمال فقد اتخذوا طريق برزخ السويس وسيلة للاختلاط بسكان وادى النيل الأدنى منذ فجر التاريخ ، والحديث عن بدو سيناء وفلسطين وسوريا من العرب الشماليين ليس ببعيد عن الباحثين ، وهم الذين عرفتهم مصر منذ عهد الأسرات الأول إما تجارا أو غزاة أو لاجئين ؛ وكانوا أن ساهموا فى طبع اللغة المصرية القديمة بالطابع السامى ، ولم تنقطع صلة هذه العناصر العربية بمصر زمن البطالمة والرومان[١٣] ؛ إلى حد جعلها تستمر فى استهداف مصر بفعل هذه الأسباب الثلاثة حتى ظهر الاسلام ليزيد من هذا الاستهداف شدة وتأثيرا لتتجاوز آثارها فى القديم بظهور دماء غزيرة من الفاتحين تسهم فى نشر اللغة العربية ، وأخذت هذه الصلة تمارس فعالياتها خلال فترة زمنية طويلة الأجل حتى صبغت مصر بالثقافة العربية ؛ بما انطوت عليه من مضمون حضارى جمع العنصرين العربى والمصرى فى دائرة العروبة .

١١- مصطفي مسعد : " الإسلام والتوبة في العصور الوسطي " ، الانجلو المصرية ١٩٦٠ ، صفحة ١٠٦ – ١٠٨ .

١٢- مصطفي مسعد ، نفسه ، ص ١٠٨ .

١٣- نفسه ، صفحة ١٠٩ .

المنارة للاستشارات
www.

ومما ساعد علي انصهار اللسان العربى السامى ، باللسان الحامى المصرى ذلك الاتصال بين الأعراق العربية والمصرية بتأثير الدوافع الجغرافية التى ربطت بين الشواطئ الأسيوية والأفريقية ، ويتجلى ذلك الاتصال فى دراسة رصينة قام بها أستاذنا عبد العزيز صالح حول " مصر القديمة بين جيرانها فى الجنس واللغة " ، فقد أوقفنا على أن الأجداد المصريين ظلوا منذ أواخر دهرهم الحجرى القديم الأعلى أى منذ ما يقرب من عشرة آلاف عام من سلالات البحر المتوسط الجنوبية مع اختلافات محلية بين سكان أطراف الصعيد وأطراف الدلتا وبين سكان حواف الصحراء الشرقية وسكان حواف الصحراء الغربية مشيرا إلى أنه على الرغم من أن المصريين احتفظوا للغتهم بمبادىء نحو وصرف ميزت بينها وبين غيرها من لغات العالم القديم، لكنهم ضمنوها في الوقت ذاته قواعد أخرى ، ومفردات تكشف عن استمرار صلاتهم بجيرانهم الأدنين أصحاب المجموعة السامية في الشمال الشرقى وأصحاب المجموعة الحامية في الغرب وفى الجنوب والجنوب الشرقى[١٤].

وكانت الصلات اللغوية بين المجموعتين موضع أبحاث مسهبة منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، وأكد بعض الباحثين غلبة العنصر السامى من علماء الآثار والتاريخ ، بينما تقصى بعض اللغويين الطابع الحامى فيهما ، وربط فريق ثالث بين المجموعتين السامية والحامية في سياق واحد علي اعتبار أنهما من أصل مشترك قديم؛ ولا يوجد فارق أصيل بينهما أو أنهما بندرجان من الأسرة السامية الحامية ، وهذا الفريق الأخير قسم هذه الأخيرة الى أربعة أقسام أو خمسة هي " السامية " ، والبربرية والكوشية والمصرية القديمة والهوسوية ؛ ولم يتأت هذا التقارب – بطبيعة الحال – نتيجة عامل واحد ؛ بل ساهم فى حدوثه عدة عوامل متداخله منها وحدة الجنس البعيدة بين مصر وجيرانها ، والاختلاط الجنسى المتقطع بينهما، والاتصال الثقافى والتشابك اللغوى ، وفي ضوء تعدد وسائل هذا التقارب بين مصر وجيرانها يتضح أن الصبغة السامية ظلت أكثر وضوحا في المفردات المصرية القديمة خلال ثلاث مراحل أساسية طويلة ؛ أولاها مرحلة التكوين الثقافي خلال الألف الرابع قبل الميلاد ، وثانيها خلال الألف الثالث قبل الميلاد ، وفيها استقبلت مصر جماعات من الرعاة والتجار والمهاجرين وعمال المناجم(الساميين) ، واتسعت صلاتها ببلاد الشام ،

١٤- عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ؛ الجزء الأول ؛ الانجلو المصرية ، إصدار ثالث ١٩٩٢ ، صفحة ١٢ ، ١٣ .

المنارة للاستشارات
www.

وثالثها منذ القرن ١٨ ق .م وفيها اندفعت إلي مصر جماعات سامية عدة تحت ضغط هجرات آرية شمالية ، وفضلا علي ما تضمنته نصوص هذه المراحل ، شاعت في العبارات المصرية الدارجة مفردات سامية كثيرة يصعب تحديد أزمنتها ؛ وتجاهلتها المتون الأدبية الرسمية عصورا طويلة حتى سجلتها الكتابة القبطية منذ القرون الميلادية الأولى[١٥].

ومما لا شك فيه أن العربية كانت إحدى اللغات السامية التى احتفظت بتأثير قوى في اللغة المصرية القديمة بتأثير هذه المراحل عبر آلاف السنين ، لنرى تأثير ذلك مسجلا في الكتابات القبطية ، ويظهر ذلك بجلاء في تأكيد **الدكتور / علي رضوان** الذى أشار إلى أن ما يزيد عن ٦٠% (ستين في المائة) من مفردات اللغة العربية تبدو آثارها واضحة في الكتابات المصرية القديمة[١٦] .

والحديث عن تاريخ العرب والعربية منذ قديم الأزمان يؤكد أن العربية متأصلة في التاريخ المصرى القديم ؛ وتصدى بعض الباحثين لهذه القضية ، وتوصلوا إلي أن هذه اللغة قديمة قدم التاريخ المصرى ، فيذكر **محمد بهجت القبيسى** أن لفظ " كعبة مكان "* يشير إلي عرب مكة الذين جاءوا إلي مصر ، وظهروا في النصوص المسمارية قبل بناء الأهرامات في مصر بمائة عام (٢٣٤٠ ق .م) ، ولا يمانع في الأخذ برأى محمود خطاب أول من ذهب إلى أن الهكسوس أقوام من العرب دخلوا مصر ، وليسوا خليطا من أجناس شرقية [١٧]، ولكن الأهم من ذلك كله ينبغى أن يصب في أسباب هذا التوافد العربي علي مصر وآثاره الحضارية .

والحديث عن أسباب الهجرات السامية إلي مصر في القديم يجعلنا نبحث عما إذا كانت هذه الهجرات بقصد الاستقرار أم التجارة أم الغزو لما لذلك من صلة أكيدة بمعنى العروبة ، وفى إشارة إلي النقوش المصرية القديمة بإحدي صور مقابر بنى حسن ظهر على الحائط الشمالى بها "خنوم حتب الثانى " أمير الأسرة الثانية عشر في عهد الملك سنوسرت الثاني

١٥- عبد العزيز صالح : نفسه ، صفحة ١٣- ١٦ .

١٦- اكد لنا ذلك في تعقيباته علي الطرح الذي تقدمت به في فعاليات الحلقة النقاشية ضمن حلقات المؤتمر العلمي الدولى السادس عشر الذي نظمة اتحاد الآثاريين العرب بمدينة شرم الشيخ المصرية في نوفمبر ٢٠١٣م، أما لفظة " كعبة مكان " فتنطق فى العربية كما وردت هكذا حرفيا على لسان محمد بهجت القبيسى خلال فعاليات هذه الحلقة ذاتها .

١٧- محمد بهجت القبيسى : الاكراد والبنى ، دراسة فى تاريخهم وجغرافيتهم ، انظر إشاراته حول الجماعات الشرقية الأسيوية التي قصدت مصر في تاريخها القديم .

المنارة للاستشارات
www.

يستقبل مجموعة يتقدمهم حكاوخاسوت[١٨] ومعه وفد مكون من ستة وثلاثين شخصا ، وهذه مجموعة كنعانية جاءت – فى رأى **الدكتور محمد بهجت قبيسى** – الي هذه المنطقة بأواسط صعيد مصر للاستقرار – وليس للزيارة؛ ويؤيدة في هذا السبيل الدكتور – صدقة موسى معبرا عن أن هذه الجماعات جاءت مختلفة في الجنس واللون والملبس ومخالفة للجنس المصرى ومصطحبة معها الأطفال والنساء وتحمل الكحل بما يشير إلى انها جاءت لتستوطن دون تأثير فى المجتمع المصرى أو لتتاجر[١٩] .

وعلى الرغم من أن ظهور مثل هذه الجماعات الكنعانية الأرامية في النقوش المصرية القديمة يبرهن علي التأثير السامى في حضارة مصر القديمة والاتصال بين المجموعتين السامية والحامية ؛ وبما لا يلغى – إطلاقا – مشاركات عربية ضمن هذا التوافد السامى ؛ إلا أن المقاصد التجارية التى جاءوا إلى مصر من أجلها أو قيامهم بالعمل في المعابد كخدم أو عبيد واماء آنذاك لا يقر – إطلاقا – بوجود معنى العروبة ؛ لان العرب فى هذه الاشارات أشبه بشوارد مشاركة بأعداد قليلة جدا ضمن جماعات أسيوية وافدة قصدت أماكن محددة ؛ وليس لها نصيب في الاستقرار المؤثر في الحياة المصرية ، الأمر الذى يجعلنا نأخذ بأن العرب والعربية معروفة في التاريخ المصرى القديم ، ولكنها ليست من مكوناته في مضمونة الحضارى أو مشاركة فى أصوله باستثناء الجانب اللغوى الذى فرض نفسه لأسباب جغرافية فضلا عن التشابك اللغوى بطريق التجارة أو شيوع لهجات المهاجرين إلي مصر .

وصفوة القول فإن العروبة بمعناها الواسع ليست لها ظهور في مصر قبل مجيء الإسلام بإستثناء الجانب اللغوى من مكوناتها والذى تشابك مع الأصول اللغوية في التاريخ المصرى القديم دون أن يكون له مردود في مضمونه الحضارى الشامل بكل أبعادة الاقتصادية والاجتماعية وتنوعه الثقافي والفنى .

إرهاصات ظهور العروبة في مصر في القرنين الهجريين الأول والثانى

كان طبيعيا أن ترتبط حياة العرب في مصر بعد الفتح بالظروف الموضوعية التى أحاطت بمنشأهم الأول ، فطبعت أيامهم وبواكير حياتهم فى مدينة الفسطاط بدينهم الجديد الذى بادروا بإعتناقه بتشجيع من هذه البيئة التى

١٨- لفظ يشير إلي حاكم البلاد الأجنبية .

١٩- صدقه موسى : استقرار بعض الأسيويين والليبيين في مصر في عهد الدولة الوسطى ضمن أبحاث نشرها اتحاد الآثاريين العرب .

المنارة للاستشارات
www.

هيأت لهم فكرة اللامتناهى الدائم وتقبل الوحى من إله واحد لا تحده حدود ؛ ومن ثم أقاموا بنيانهم فى هذه المدينة على أسس من الأخلاق ليصير الدين وقواعد الأخلاق أساسا للبناء الحضارى ، وفى تلك الحالة يكون العرب قد أسسوا ملكا فى مصر يعد انموذجا لولاية عربية فى دولة عامة الاستيلاء عظيمة الملك أصلها الدين[٢٠].

إنصبت الحياة العربية فى مصر زمن الفتح العربى بفعل تأثير ما كان سائدا فى البيئة الحجازية على الضرورى من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ، وبما ينطوى على مؤثرات حضارية تشربها العرب في مجتمع المدينة دعتهم إلى الوحدة والتعاون[٢١] تعبيرا عن فكرة الأمة ، وبذل الجهاد لنشر الإسلام في غير بلاده كضرورة ملحة للسياسة العربية الإسلامية بعد وفاة النبى " صلى الله عليه وسلم ".

أصبحت حياة العرب في مصر غداة عمليات الفتح محكومة بالضرورات في المعيشة والهدف السياسى ، فلا شأن لهم سوى الجهاد والدعوة إليه بقصد نشر عقيدتهم الجديدة فيما تبقى من بلدان لا يتم فتحها الا في ضوء ذلك ؛ ولا حياة لهم إلا على الضرورى من الأقوات ؛ دونما اختلاط بالأصليين المصريين ؛ أو اندماج معهم خلال هذه المرحلة المبكرة من حياتهم ، لذا شهدت هذه الاخيرة في الفسطاط إنعزالا كاملا للجند العرب في داخل الفسطاط التى باتت آنذاك معسكرا لهم لا مدينة عامرة حالت أحوالها دون استطابة العرب حياتهم المدنية .

انطوت حياة العرب في مصر علي البساطة دون اللجوء إلى الترف ورغد العيش، فلا ينشغلون بالحصول على الغنائم بما يحول دون سعيهم إلى نشر الجهاد ، وأخذت الحياة العربية هذه في القرن الأول الهجرى أشكالا بنيت على هذه الضرورات ؛ وكان لذلك كله آثاره الايجابية عند الأصليين الذين رحبوا بالعرب لما وجدوه من خلاص بفضل هذه السياسة من نير الحكم البيزنطى الغاشم[٢٢].

٢٠- راجع ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) : المقدمة ، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، صفحة ١٣٢ ،- وانظر ايضا – ابن الأزرق (ت ٨٩٦هـ) : بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق سامى النشار ، بغداد ١٩٧٧ ، الجزء الأول صفحة ٢ ، ٣ ، ١٠٥ .

٢١- ابن هشام (ابو محمد عبد الملك الجعافرى الحميرى البصرى) : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، راجع أصولها محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة حجازى ،ج ٢ صفحة ١٢٣ ، ١٢٤.

٢٢- ساويرس بن المقفع (ت اواخر ق ٤ هـ) : سير الآباء البطاركة ، القاهرة ١٩٤٢ ، المجلد الأول ، صفحة ٥٤ ، ١٠٧ .

المنارة للاستشارات
www.

كان طبيعيا أن يستطيب العرب حياتهم المدنية في مدينة الفسطاط بما يتوافق مع طبيعة هذه المرحلة المبكرة ؛ فأقاموا الخطط بما يكفل الوحدة بين أبناء القبائل ؛ وبما ينطوى على أسس الدين وقواعد الأخلاق تفرغا للجندية[٢٣].

روعى في تصميم الدور في بواكير الحياة العربية بمدينة الفسطاط الميل إلى البساطة؛ والحفاظ على الحرمات ومراعاة تعاليم الإسلام ، وأشار علماء الآثار بأن منازلهم في تلك المرحلة كانت تشتمل على طابع ، واحد وظلت فترة زمنية طويلة تستمد الضوء والهواء من أفنية تتوسط هذه الدور[٢٤] وتعد دار عمرو بن العاص بجوار مسجد الفسطاط ؛ والمعبر عنها بالدار الصغرى عند ابن دقماق[٢٥] انموذجا للدور المبكرة فى بنايات الفسطاط آنذاك .

وكانت الدور في الفسطاط تأخذ شكل بيوت منتشرة داخل الخطط ، حيث شيدت في تلك المرحلة بالطوب الأدكن والبوص والنخيل ؛ بما يتناسب مع حياة العرب آنئذ ؛ وهى عمارة مبكرة ليس لها آثار باقية في أيامنا المعاصرة ، أو واضحة يمكن الكشف عنها في المستقبل[٢٦] .

استطاب العرب حياتهم في الفسطاط بما يكفل لهم نشر الجهاد الذى أقرته سياسة الحكومة العربية ؛ مدعوما بتقرير العطاء والأرزاق اللازمة[٢٧].

كان طبيعيا أن تأخذ حياة العرب بعد الفتح شكلا يتسم بالانعزالية عن أهالى البلاد الأصليين ، حيث إنغلقوا على أنفسهم دونما اختلاط أو اندماج بأقباط مصر بما لا يتعارض والسياسة العربية لدولة الخلافة ؛ وبصورة

٢٣- راجع مقالنا بعنوان " مظاهر الحياة الاجتماعية بالفسطاط فى ولاية عمرو بن العاص الأول ، مجلة التاريخ والمستقبل ، يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة المنيا ، المجلد الثاني ، العدد الأول ١٩٩٢ صفحة ٧٩ .

٢٤- فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ؛ المجلد الأول ؛ القاهرة ١٩٧٠ ، صفحة ٣٥٤ .

٢٥- " الانتصار لواسطة عقد الأمصار، " بولاق ، سنه ١٣٠٩هـ ، الجزء الرابع، صفحة ٦و٧.

٢٦- حول هذه الدور راجع مقالنا حول" مظاهر الحياة الاجتماعية فى الفسطاط " مرجع سابق ، صفحة ٨٠ .

٢٧- راجع الطبرى(ت ٣١٠هـ) تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ،الجزء الثالث ١٩٣٩م ، صفحة ٢٧٧- ٢٧٨ .

المنارة للاستشارات
www.

سميناها في بحثنا السابق بـ " الانعزال الاجتماعى للجند " وتدور هذه السياسة حول محور واحد هو نشر الإسلام في غير بلاد الإسلام[٢٨] .
علي أن انعزال العرب وانغلاقهم داخل الفسطاط لم يكن بصورة مطلقة ، اذ سرعان ما خرجوا من خططهم في مواسم الربيع إلى أرياف مصر وقراها المجاورة لفسطاطهم يجرون اتصالهم بالقبط ، ويبادلونهم المنافع ؛ يعطونهم، ويأخذون منهم ، وهكذا اختلط اللسان العربى بالقبطى ؛ فى إرهاصة مبكرة تحمل معانى جديدة من أجل إظهار بواكير علامات العروبة فى مصر ، وهى علامات جديدة اقترنت بها الفترة المبكرة من حياة العرب فى مصر إبان مرحلة الفتح ، وبعدها وطيلة القرن الأول الهجرى ، والمعبر عنها في كتابات " إبن عبد الحكم " " بمرتبع الجند "[٢٩] ، حيث كان الجنود العرب يطلقون خيولهم حتى تسمن فى مزارع القبط ؛ ويتعرفون على عادات وتقاليد المصريين بما يمثل أقدم أشكال الاتصال بين العرب والمصريين [٣٠] على أن فترات الربيع لا تعكس ديمومة الاتصال بين العنصرين العربى والقبطى، ولا تنهص دليلا على استقرار عربى فى أرياف القبط وقراهم ؛ مما جعل التأثير من ورائها وقتى سرعان ما يزول بعودة العرب إلى فسطاطهم .

واقترنت بواكير الحياة العربية في المرتبعات خلال القرن الأول الهجرى بعدة أسباب أعانت الفاتحين على تذوق الحياة المدنية ؛ من ذلك أن هؤلاء الفاتحين كانوا ينزلون فى ضيافة الأقباط أياما بمقتضى الشروط التى سنها عمرو بن العاص حينما وضع أساسا للجندية فى مصر(فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام)[٣١] ، لكن وقت هذه الضيافة لا تعطى للعربى قدرا من الاندماج بقدر ما أصابته من عناء ، في وقت لا تخلو فيه هذه المناشط من فائدة تعود على العربى والقبطى فى إظهار علامات التبادل الثقافى والاجتماعى بينهما.

ومن ذلك أن الحياة الإنعزالية للعرب فى داخل الفسطاط شهدت محاولات من الحكام فى مصر على تشجيع القبط لتعلم اللغة العربية ، ففى عهد الخليفة

٢٨- مظاهر الحياة الاجتماعية في الفسطاط فى ولاية عمرو بن العاص الأولى ، مرجع سابق ، صفحة ٨٣ ، ومن المؤكد أن هذا الانعزال كان لا يعبر عن نزعة استغلائية سلكها العرب تجاه قبط مصر ؛ أنظر نفس المقال والصفحة .
٢٩- ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) :" فتوح مصر "، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩١١ ، صفحات ١٩٠ – ١٩٢ .
٣٠- ابن عبد الحكم : المصدر السابق والصفحات .
٣١- المقريزى (تقى الدين أحمد ت ٨٤٥هـ) : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار والمعروف باسم " الخطط " ، بولاق ١٢٧٠هـ ، الجزء الأول ، صفحة ٢٩٢ ، وحول هذه الضيافة، انظر مقالنا : نفسه ، ص ٨٧ .

المنارة للاستشارات
www.

عبد الملك بن مروان وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك سنة ٨٧هـ كان قرار تعريب الدواوين فى مصر[٣٢] ؛ ومن الطبيعى ان الأقباط حرصوا على تعلم اللغة العربية كى يحافظوا على بقائهم فى وظائفهم ، ولا ننسى أن العربية بدأت إرهاصاتها فى تلك البلاد التى عاشت فترات مرتبع الجند فى القرن الأول الهجرى بالبلاد المجاورة من الحاضرة بالدلتا والصعيد الأدنى .

على أن حركة التعريب فى مصر خلال القرن الأول الهجرى لم تأخذ قدرا واسعا أو حتى ضيقا بسبب عدم استقرار العرب بقرى مصر ؛ وكل ما فى الأمر أنها أسفرت عن محاولات لأفراد من القبط أقبلت على العربية بما يعينهم على حياة أفضل أو آخرين ممن رغبوا فى الإسلام ، فأقبلوا على لغته

ولم تفلح كل هذه الأسباب فى دمج العنصرين العربى والقبطى داخل شريحة واحدة ؛ بدليل أن مصر خلال القرن الأول الهجرى انقسمت إلى شريحتين منفصلتين لا رابط بينهما ؛ فالعرب – آنذاك – بناءا على دراسات وضعها عبد الرحيم عمران ١٩٧٣[٣٣] حول ديمغرافية مصر وعدد سكانها بعد قدوم الفاتحين العرب وتوصل بموجبها بأن أعداد سكانها آنذاك تراوح بين اثنين من الملايين إلى خمسة ملايين نسمة مقابل حوالى أربع وعشرين ألفا من الجند العرب الذين استوطنوا الخطط بالفسطاط[٣٤] ، بعيدا عن مواطن القبط ؛ الأمر الذى لا ينهض بتكريس فكرة العروبة – آنذاك - في المجتمع القبطى ، ولئن يعبر عن وجود إرهاصة لها ومؤثر من مؤثراتها ؛ فهو من ممهدات ظهورها .

ولا يخفى علينا أن سياسة الانعزال المحكومة بنوايا العرب وصدق أهدافهم من أجل العقيدة الجديدة ، بعيدا عن الاستعلاء والاستحواذ على حساب أهالى مصر يكفى لكى يشجع القبط على تعلم العربية ؛ وتتوق بتأثيرها أنفسهم إلى الاختلاط بحامليها بعد أن خلصوهم من الاضطهادات المالية والدينية التى نالت منهم ومن أوطانهم ، وفى هذا الإطار كانت العلاقات بين القبطى والعربى تنطوى على مودة ولين ، ورغبة من المقيم

٣٢- الكندى (ت ٣٥٠هـ) " الولاة والقضاة " ، بيروت ١٩٠٨ م صفحة ٥٨ – المقريزى : " الخطط " ، مصدر سابق ، ج ١ ، صفحة ٩٨ .

٣٣- قد أخذنا بالنتائج التى توصل اليها عبد الرحيم عمران فى دراسته بعنوان :
The population of Egypt past and present وذلك بعد أن أجرينا تحليلا لمحتوى ما توصل إليه ، وقارناه بمضمون ما كتبه ابن عبد الحكم ، انظر مقالنا " مظاهر الحضارة في الفسطاط فى ولاية عمرو بن العاص الأول " ، صفحة ٨٥ ، ٨٦ .

٣٤- ابن عبد الحكم : نفسه ، صفحة ٢١٧ .

المنارة للاستشارات
www.

فى قبول الوافد العربى ، وحينذاك كان مرتبع الجند العرب فى أرياف مصر يحظى بقبول وترحيب أهله المصريين فى وقت نهى فيه الخليفة عمر بن الخطاب العرب عن الزرع والمزارعة (فلا يزرعون ولا يزارعون) وذلك كله من ممهدات ظهور علامات العروبة فى مصر فى أوقات لاحقة يتثبت فيها المجتمع العربى فى مصر وتستقر قواعده .

وكان من المقبول لدى قبط مصر أن يتهيئوا للتعايش مع الفاتحين اذا ما دعت الضرورة لذلك فى مرحلة لاحقة ، فالمنطق ؛ وأحكام الواقع لا يقر باستمرارية انعزال العرب فى مدينة ناشئة لا تسع لهذه العناصر الوافدة التى أخذت تتزايد بين حين وآخر على البلاد المصرية فى وقت أثبتت فيه نواياها الحسنة ، وخلصتهم من استبداد البيزنطيين ؛ وحمت أديرتهم وكنائسهم ، ووفرت لهم حرية العقيدة وسلكت تجاههم سياسة عادلة إدارية ومالية دون السعى وراء طلب الجباية [٣٥].

على أن إبقاء العرب على أنظمة القبط ، وصنائعهم بعد الفتح قد سمحت للمصريين القيام بهذه الأنظمة وتلك الصنائع دون أن يشاركوهم في إعمار المدن المصرية ،
(فصار الأقباط هم صناع السفن والنسيج والغذاء والزراعات ؛ وادارة الوظائف فى مجال الإدارة والمال حتى تيسر الأمر إلى الاعتماد عليهم فى جباية الجزية وشغل وظائفها فى ظل حياة الجندية التى تفرغ لها العرب دون استطابة مدنية؛ مما جعل فكرة العروبة غير مرئية أو ملموسة .
أخذ العرب – تدريجيا – فى الاتصال بالمصريين ، والاختلاط بهم فى دعوة إلى الاستقرار بأرياف مصر ؛ ذلك ان مواكبة الحياة العربية فى مصر لأحداث الخلافة في الحاضرة دمشق منذ أوائل القرن الثانى الهجرى دفعت بتزايد أعداد العرب المهاجرين تنفيذا لسياسة غربية رأت أن تحدث توازنا بين أعداد عرب الشمال وعرب الجنوب الذين كثروا وازدادوا مما عجل بدعوة بنى أمية إلى استقدام أسرات عربية شمالية للاستيطان بقرى ومزارع مصر بدافع العصبية ؛ والتمكين لعرب الشمال على حساب اقرانهم الجنوبيين ؛ ولتنفيذ ذلك استحضر عبيد الله بن الحجاب عامل الخراج فى

٣٥- من الثابت أن العرب حافظوا على التنظيمات المالية والإدارية التى وجدوها فى مصر ؛ فأبقوا عليها وعلى موظفيها ، واتخذوا من السياسات الضرائبية بما ينطوى على توخى استقرارهم وراحتهم والحيلولة دون إيذائهم واضطهادهم فى أنفسهم وأموالهم إلى حد جعل بعض خلفاء بنى أمية يعاقبون عمال الخراج الذين اشتطوا فى فرض سياسات ضرائبية ظالمة على النحو الذى حدث فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز.(أنظر المقريزى : الخطط ج ١ ، صفحة ٧٧- ٧٨ .) .

المنارة للاستشارات
www.

مصر فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ) نحو من ثلاثة آلاف أسرة من قبيلة قيس إلى مصر سنة ١٠٩هـ ؛ حيث أنزلهم فى أرياف بلبيس بجوار مواطن القبط[٣٦] .

أخذت القبائل القحطانية أمام التوافد القيسى فى النزوح إلى أرياف مصر وقراها[٣٧] ؛ فنزلت ضمن ما نزلت فيها بعيدا عن الفسطاط ، فى أراضى الصعيد الأدنى والأوسط[٣٨] وعاشت جنبا إلى جنب مع المصريين ، وهكذا نسمع لأول مرة عن استقرار عربى فى مراكز ثابتة فى الدلتا والصعيد شارك فى الحياة المدنية المصرية خلال القرن الثانى الهجرى[٣٩] ، وهكذا أخذت الهجرات العدنانية (عرب الشمال) والقحطانية (عرب الجنوب) تتوالى على دلتا صعيد مصر منذ ذلك الوقت .

على أن هذا التوافد العربى على أرياف مصر يعد إرهاصة لبداية الإندماج الحضارى بين العرب والمصريين ؛ وعلاقة مميزة للاختلاط التدريجى بينهما ، وليس اختلاطا بالمعنى الواسع الذى يكشف عن المضمون الحضارى لمعنى العروبة ، ذلك أن استقرار أفراد القبائل العربية – آنذاك - لم يعد سوى محاولات لتبادل ثقافى مع المصريين ؛ واختلاط محدود الأثر لم يسفر عن انصهار العنصرين ؛ حيث كان العرب يستطيبون حياتهم المدنية اعتمادا على العطاء الممنوح لهم من قبل الدولة منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب[٤٠] ، وفى ظل شروط الفاتح القديمة ؛ التى ظلت قائمة ومعمولا بها خلال القرن الثانى الهجرى ، وأهمها ما اشترطه هذا القائد بقيام القبطى بضيافة كل من ينزل عليه من العرب ثلاثة أيام ، وكلها أمور تزيد من احتكاك العربى بالقبطى فى مناخ صحى هادىء يكفل لهما حرية التعايش ؛ والتوافق .

وعلى جانب آخر فإن الاستقرار العربى بأرياف البلاد المصرية فى القرن الثانى الهجرى لم ينتج عنه مساهمات عربية فى صنع بناء منظومة حضارية ؛ فلم نسمع عن الصانع أو الحرفى أو المزارع العربى الذى ما زال يمارس عزوفا وانعزالا عن الصنائع ؛ مفضلا رغبته فى الابتعاد عن

٣٦- إبن عبد الحكم : المصدر نفسه ، صفحة ١٤٣ .

٣٧- عبد المجيد عابدين : دراسة لتاريخ العرب فى وادى النيل ؛ مع تحقيق لكتاب المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب ؛ عالم الكتب ، القاهرة ١٩٦١ ، الجزء الأول ، صفحة ١٠١ .

٣٨- المقريزى : الخطط ، ج ١ ، صفحة ١٠٥ .

٣٩- حول الاستقرار العربى بأرياف مصر فى القرن الثانى الهجرى؛أنظر الكندى:الولاة صفحة ٣٩

٤٠- المقريزى : الخطط ، ج ١ ، صفحة ٢١١ .

المنارة للاستشارات
www.

الجوانب المهنية التى تكسبه حقا فى تأسيس حياة تكفل له السعادة والتحضر بدلا من استخدامه للعطاء بما يحقق له العيش الآمن فقط .

وفى ظل التعايش العربى القبطى ابان القرن الثانى الهجرى كان القبطى هو الصانع والحرفى والزارع الوحيد فى مصر ، دون أن يتشرب منه العربى الوافد أسرار حرفته وصنعته ؛ لأسباب تعود إلى انغلاقه على نفسه داخل المراكز الريفية الجديدة ؛ لأسباب اتكالية جعلته يركن إلى عطائه الذى يكفيه ويكفى أرزاق عياله تبعا لما قررة الخليفة عمر بن الخطاب لتنظيم حياة العرب بمقتضى هذا العطاء ؛ وفى غياب انصهار العربى فى المجتمع القبطى مما حال دون إقدامه على أن يتعلم ويتدرب على الفلاحة والزراعة والصناعة التى مهر فيها المصريون .

على ان عزوف العرب عن ممارسة الصنائع وعدم انصهارهم فى الحياة القبطية بكل جوانبها لا يلغى إطلاقا الأثر الثقافى الذى أفرزته تلك المرحلة المبكرة ، ومما لا شك فيه أن التشابك اللغوى مع اللغات واللهجات المصرية ذات الأثر البعيد والمتواصل عبر قرون عديدة مضت على استقرار العرب كانت من وراء التمهيد لتبادل ثقافى بين العنصرين فى ميدان اللغة ، والعادات ، والتقاليد ؛ والملبس ، والماكل ، وكلها أمور لم تتأت إلا فى اطار آثار الاختلاط التدريجى وليس الواسع فى حياة هذين العنصرين ؛ بينما لم يظهر ذلك بوضوح وجلاء على الآثار والنقوش الإسلامية على الفنون والعمائر ؛ التى تعبر عن مظاهر الحياة المادية فى حياة الشعوب ، والمعروف أن الذى كان يباشرها فى مصر آنذاك هم القبط فقط ؛ وبالتالى فإن مظاهر الحياة الاجتماعية المبكرة خلال القرون الهجرية الأولى لا تعكس سوى الأثر القبطى بما يحمل من مؤثرات غنية قديمة حافظ عليها القبط فى صنائعهم ؛ وهى مؤثرات قبطية وبيزنطية وساسانية .

على أن قدوم طائفة من العلماء والفقهاء العرب على نواحى مصر منذ القرن الثانى الهجرى لتعليم الناس أصول الدين وفهم العقيدة ممن رغب فى ذلك من أهالى البلاد الأصليين أو العرب الذين توافدوا عليهم كان يدعم – بطبيعة الحال – الجانب الثقافى والعقدى مما كان له دوره الملموس فى تمهيد السبيل لانتشار الإسلام بين القبط فى مصر .

وصفوة القول فان القرنين الهجريين الأول والثانى شهدا فى مصر اختلاطا تدريجيا بين العرب والمصريين بما يعبر عن علامات ظهور العروبة فيها، بينما لم يعكس إندماجا بينهما بما يسمح ببناء مضمونها الحضارى للدلالة على ميلادها ؛ وهو الميلاد الذى يبرهن على ظهور شعب جديد من المولدين يجمع فى أعرافة بين الدماء العربية والمصرية ذات المؤثرات المتلاقحة " بين العنصرين " وبما يكشف عن مولد حضارة جديدة

المنارة للاستشارات
www.

فى مصر ، تحمل شخصية عروبية فى تكوينها الأمر الذى نحاول رصده فى الصفحات اللاحقة .

ظهور مولد العروبة في مصر الإسلامية

طرأ على حياة العرب فى مصر ابتداءا من النصف الأول من القرن الثالث الهجرى تطور هام ترك أثرا نوعيا فى تاريخ هجرة القبائل العربية ، فقد حرم الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) العرب من العطاء[٤١] ، فى وقت فرض عليهم فيه الخراج[٤٢] ، واعتمد فى إدارة شئون دولته على الترك[٤٣] ، وفقدت القبائل العربية إمتيازاتها فى مصر العسكرية والإدارية والمالية[٤٤] ؛ ولم يعد للعربى بمقتضى هذه الظروف الجديدة ما يكفل له رزقه وأرزاق عياله ، وليس لديه ما يعوضه عن فقدان عطائه من صنعة أو حرفة تمكنه ليحيى ويعيش ، ولم ير أمامه إزاء ما ألم به من ظروف سوى أن يختلط اختلاطا فعليا بالمصريين ؛ فى محاولة لاستطابة الحياة المدنية بحثا عن حياة أفضل ؛ ومنذ ذلك الوقت شهدت الأراضى المصرية هجرات عربية بمعناها الواسع ؛ وسرعان ما أخذت هذه العناصر المهاجرة إلى الأرياف المصرية أن تعمل فى الزراعة والتجارة وسائر الأعمال التى تكفل لهم أسباب العيش، واختلطت دماؤهم بدماء المصريين ، وما لبثت ألقابهم العربية ان تغيرت ، وانتسبوا إلى أوطانهم الجديدة ، فانتسب آل سلامة بن عبد الملك إلى طحا[٤٥] ولقبوا بالطحاوى[٤٦] مما ينهض كشفا على انصهار العربى فى الحياة المصرية واختلاط دمائه بالدماء المصرية ؛ وبداية لظهور عنصر جديد من المولدين فى مصر الإسلامية ؛ وليس أدل على ذلك من استقرار العرب فى بلدان وقرى بعيدة عن الفسطاط العاصمة ؛ فى الوجهين البحرى والقبلى ؛ واتخذت هذه المراكز الثابتة التى شهدت هذا الاستقرار أسماء عربية تدل على ساكنيها من العرب ؛ وهكذا فبعضها يسبقها لفظ بنى أحمد ، وبنى على ، وبنى عدى فى بلدان الصعيد الأوسط .

٤١- المقريزى : الخطط ، ج ١ ، صفحة ٢١١.

٤٢- حسن أحمد محمود : حضارة مصر الإسلامية فى العصر الطولونى ؛ القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٦٠م ، صفحة ٣٣ .

٤٣- ابن خلدون : المقدمة ، صفحة ١٥٦ .

٤٤- Mocmechael : AHistory of Arabs in the Sudan (Cambridge , 1922) VoI 1 ,P 160

٤٥- الكندى : الولاة ؛ صفحة ١٦٨ – ١٧١ ، انظر .

٤٦- السمعانى (ت ٥٦٢هـ) أبى سعيد عبد الكريم بن محمد : ، الأنساب صورة من مخطوط بالأوفسوت ، عمل مكتبة المثنى – دار الكتب المصرية ، - تاريخ – تحت رقم ٣٤٨٦١ ، ورقة ٢٠٧ .

المنارة للاستشارات
www.

على أن هناك تطورا يخص حياة العرب فى مصر خلال القرن الثالث الهجرى ، فقد حملت – إذ ذاك - أسماء الكثير من الخطط أسماء أفراد القبائل بينما كانت تحمل نفس هذه الخطط لدى أصحابها من أبناء القيسية واليمنية خلال القرن الثانى أسماء القبائل تعبيرا عن الانتماء الاجتماعى للقبيلة[٤٧] ؛ وهو الأمر الذى يؤكد على أن الانسان العربى فى مصر فى القرن الثالث الهجرى أخذ يعبر عن نفسه كمواطن يعيش فى مصر يأخذ منها ويعطيها مؤثرات عربية لا تلغى – بطبيعة الحال – فكرة الانتماء لقبيلته تكريسا لفكرة العروبة ومضمونها الحضارى .

وشهد القرن الثالث الهجرى وفى أنحاء كثيرة من قرى مصر تمركز عربى فى الخطط ، والحارات ، فاختلطت قريش على سبيل المثال – لا الحصر – بالجهة الغربية بالبهنسا احدى نواحى الصعيد الأوسط ، كما اتخذت لنفسها حارة سميت بحارة الأشراف[٤٨].

بدأ العربى فى مصر خلال القرن الثالث الهجرى إزاء شعوره بالخطر من تزايد العنصر التركى يظهر تمسكه بالأرض المصرية ؛ التى وفر لها قوة عربية تعينه على أن ينفرد بمكاسب هذه الأرض ، ولا يترك للترك فرصة للفوز بها فى أريافها وقراها ، أو يغتنم منها ما يشاء ؛ فوجد فى اتخاذ الأحلاف أساسا لإظهار قوته وقدرته على مواجهة الترك الذين أخذوا يزحفون على هذه البلاد منذ عهد الخليفة المعتصم لحرمانه من مكانته فى مصر[٤٩] ؛ وكان أن وجد العرب فى القبط ما يعينهم على هذه المواجهة لكونهم خصوما للترك ، الأمر الذى حقق لهم مزيدا من الاختلاط بالمصريين ؛ وفى أطار من التحليل الأنثربولوجى الذى يعول فى بعض اتجاهاته على الجانب النفسى للانسان ما يشير إلى أسباب هذا التقارب ، فالعرب فى نظر المنوفستيين الأقباط أصحاب تاريخ مشرف أنقذوا به بلادهم وأنفسهم وأموالهم ودينهم من المستعمر البيزنطى ' بينما بات الترك فى رأيهم غزاة لا يختلفوا كثيرا عن البيزنطيين ؛ الأمر الذى يكشف الكثير من دواعى سرعة ذلك الاختلاط بين الدماء العربية والمصرية ، ويكشف بنفس القدر محدودية الثورات القبطية وقلتها وما انطوت عليه من ضعف وانعدامية الأثر إزاء

٤٧- رضوان النجاتى : القبائل العربية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٥ م ، صفحة ١٦٧ – ١٦٨ .
٤٨- الواقدى : فتوح الشام : ط دار الجيل ، بيروت ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٠٨ .
٤٩- عبد المجيد عابدين : نفسه ، صفحة ١١٨ – ١١٩ .

المنارة للاستشارات
www.

حكم العرب فى مصر عصر الولاة[٥٠] الذين اشتطوا – أحيانا – فى فرض سياسات مالية تعسفية تجاة هؤلاء المصريين .

وعلى جانب آخر لم يستبد المهاجرون العرب فى مراكزهم الثابتة بقرى مصر وأريافها ، فلم يغيروا على أراضى القبط أو منازلهم حتى عاشوا دون أن يروع لهم سرب ؛ مما وفر ظروفا هادئة عاش فى ظلها العنصران طيله القرن الثالث الهجرى، ساعد ذلك كله على قدوم نفر من المصريين على تعلم اللغة العربية فى صور تمهيدية ليحدث التطور النهائى للوفاء بظهور العربية فى القرن الرابع الهجرى ، فنرى ساويرس أسقف الأشمونين يؤرخ للبطاركة فى أواخر هذا القرن باللغة العربية ، ويظهر مدى التحام العنصرين العربى والقبطى بالمدى الواسع لانتشار اللغة العربية فى قول ساويرس نفسه (فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوان .....، سألت نقل ما وجدناه منها بالقلم المصرى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى ....)[٥١].

وواكب ذلك التطور العربى بتأثيراته فى الدلتا والصعيد ظهور آخر فى أطراف وحواف أقاصى الصعيد منذ منتصف القرن الثالث الهجرى حيث قصدت أفراد القبائل العربية أرض البجة بالصحراء الشرقية ، وهكذا عاش العرب فى أواخر عهد الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ) ، بجوار البجة مطمئنين حيث اختلطوا بهم ، بعد أن هاجروا للاستقرار فى صورة جماعات كثيرة إلى أرض المعادن .

إزدادت هجرة العرب إلى العلاقى بتأثير فقدانهم للعطاء[٥٢] وضياع نفوذهم القديم منذ القرن الثالث الهجرى ، ولأسباب مالية ضايقتهم من حكم الترك خرجت أفراد كثيرة من عرب ربيعة وجهينة للبحث عن حياة أفضل، ولتأديب البجة تحت إمرة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى إلى أرض المعادن فى العلاقى حيث اتخذوا مراكز هناك بحثا عن الثروة ، وساهموا فى بدء مرحلة جديدة من مراحل انتشار الثقافة العربية إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية[٥٣] ؛ ليجمعوا بين الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب فى أرض البجة ؛ والبحث عن مهاجر جديدة يضيفون بها مآثر

٥٠- عرفت الفترة الزمنية بين دخول العرب مصر وحكمهم لها منذ سنة ٢٠هـ وإلى قيام دولة الطولونيين سنة ٢٥٤ هـ بعصر الولاة .

٥١- ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ؛ المجلد الأول ، المقدمة .

٥٢- المقريزي : الخطط ، الجزء الأول ، صفحة ١٩٦ .

٥٣- مصطفى مسعد : نفسه ، صفحة ١٢٤ ، ١٢٥ .

المنارة للاستشارات
www.

لحضارة عربية جديدة يحققون بها عروبتهم الفعلية ذات المضمون الحضارى فى أقاصى شرق الصعيد .

وكان أن تمتع القبط فى مصر بحرية العقيدة ، وظلوا على مسيحيتهم وحراسا لما كانوا يملكونه من الأديرة والكنائس المنتشرة فى الصعيد والدلتا، وفى ظل هذه السياسة الهادئة التى سلكها العرب المهاجرون تجاه المصريين دونما استبداد منهم أو تعدى على ممتلكاتهم ؛ نرى مظاهر اندماج العنصرين فى صنع حياة مستقرة بهذه النواحى ، وتشير البرديات العربية التى ترجع إلى القرن الثالث الهجرى إلى مشاركات عربية قبطية فى خلق حياة آمنة مكنت كلا منهما من غرث فكرة المواطنة الحقيقية وانتماء افرادها إلى الأرض المصرية ؛ فهذا عقد تم إبرامه فى القرن الثالث الهجرى بين موسى بن عفان المسلم وأحد النصارى إشترى بموجبه الأول ثلث منزل من الثانى[٥٤] برضا وقبول ، وفى دعوة لارتباط العربى بأرضه الجديدة التى نزح اليها ، وفى وثيقة أخرى نرى أحد الأقباط وهو يشهد سنة ٢٤١هـ على إيصال خاص بدين مؤدى لأحد العرب الذين نزحوا إلى الصعيد الأوسط بمقدار عشرين دينارا[٥٥] .

على أن الحكومة الطولونية حرصت خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى على إشاعة نوع من الوئام والتوافق بين العرب والقبط حتى يسود البلاد الحياة المستقرة ؛ وكان أن بدأ ذلك العهد أحمد بن طولون نفسه الذى لم يتوان فى إبعاد إبن المدبر عن خراج مصر بعد أن أحس بخطورة إثقاله للأهلين بالضرائب ، داعيا إلى اتباع سياسة هادئة تجاه كليهما مما كان سببا فى تهيئتهما نحو بناء أساس لقاعدة يعيش فى ظلها المصريون[٥٦] بإنتماء للأرض التى وسعتهم ؛ وغيرة عليها بدليل أنه منذ نهاية القرن الثالث الهجرى ؛ ؛ وإلى نهاية العصور الوسطى كانت الحياة بين هذين العنصرين على أصدق ما يكون الوفاق إلا فيما ندر من سنين قاسى فيها الأقباط من شدائد الحياة المالية .

٥٤- جروهمان : أوراق البردى العربية ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، دار الكتب المصرية ،ج ١، صفحة ٣١١ .

٥٥- جروهمان : " أوراق البردى العربية " ترجمة حسن إبراهيم حسن ، دار الكتب المصرية ، ج ٢ ، صفحة ١٤٤، طراز رقم ٣٧٤ .

٥٦- راجع البلوى (توفى فى النصف الأول من ق ٤ هـ) : " سيرة أحمد بن طولون " ؛ تحقيق محمد كردى على ، دمشق ، ١٣٥٨ – ١٩٣٩م ، حول قيام أحمد بن طولون بارتياد أديرة وكنائس القبط ؛ وسياسته الهادئة تجاه القبط ؛ صفحة ١١٨ .

المنارة للاستشارات
www.

على أن ذلك لا يعنى بأن الطولونيين هم أصحاب الفضل فى وضع قاعدة للتوافق العربى القبطى داخل أرياف مصر وبلدانها ، بقدر ما كانت طبيعة الأشياء هى التى تدفع الحاكم – أى حاكم – كى يأخذ بأسباب الاستقرار حرصا على ملكه ودعوة لاستمراره فضلا عن الجغرافيا ونيلها وما لها من دور فى استيعاب كل ما من شأنه أن يرتبط بالأرض المصرية أو يرغب فى العيش على أرضها ، ويمكن القول بأن المجتمع العربى اتخذ وهو فى دور التكوين صورا وأشكالا متعددة نتيجة للاتصال التدريجى والاختلاط المتزايد بين العرب والمصريين .

والأمر الجدير بالاعتبار أن العرب فى مصر تعلموا من الأقباط منذ عهد الخليفة المعتصم العباسى فلاحة الأرض ورعاية الزرع ؛ وأمر الصنائع ؛ وفنونها والتى تشهد عليها النقوش الكتابية الكوفية على القطع النسيجية والخشبية والخزفية ؛ وأخذت هذه الفنون تظهر فى شخصيتها الإسلامية الجديدة ؛ فلا مضاهاة فيها ، فى ظل المفاضلة بإستخدام الزخارف الهندسية ؛ والنباتية والكتابية ، بعد أن كانت قبل ذلك التاريخ لا تتحرج فى إظهار الأصول الفنية بأيدى قبطية ؛ وتأثيرات مسيحية وبيزنطية وساسانية وفوق ذلك كله فان شيوع اللغة العربية فى قرى وريف مصر ، وما انطوت عليه من تطورات حضارية والتى كان يدعمها منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجرى توافد الجموع العربية التى بدت تعمل فى كل نواحى مصر ؛ فوجدناها تبحث عن المعادن فى أقصى الجنوب ؛ وتشهد على عقود البيع والشراء فى وسط الصعيد ، وتستقر بعادات عربية مختلطة بآخرى قبطية بكل مؤثراتها وأصولها فى الدلتا والوجة القبلى مما مكن للعربية أن تسود بفعل هذا التشابك اللغوى عبر قرون قديمة مضت .

وصفوة القول فإن العروبة فى مصر قد بدت ارهاصاتها فى القرنين الهجريين الأول والثانى ، وتقررت قواعدها فى القرن الثالث الهجرى معلنه عن مولدها فى مصر الإسلامية .

المحتوى

" مولد العروبة فى مصر الإسلامية "

أولا : تمهيد " عروبة " ، حدود المصطلح .
ثانيا : العرب والعربية فى مصر قبل الإسلام .
ثالثا : إرهاصات ظهور العروبة فى مصر فى القرنين الهجريين الأول والثانى .
ثالثا : ظهور مولد العروبة فى مصر .

المنارة للاستشارات
www.